الكتاب والثقافة في ليبيا

محمد بن مسعود رئيس اللجنة الليبية

لهيئة موسوعة المغرب العربي

القى الاستاذ محمد بن مسعود رئيس اللجنة الليبية لهيئة موسوعة المغرب العربي ومندوب المملكة الليبية في موسم الكتاب العربي محاضرة في هذا الاطار جاء فيها :

ان ليبيا التي يربطها بالمغرب ، التاريخ المتشابه والتربة المتماثلة واتحاد اللغة والدين والعادات يحدها شرقا مصر ، وشمالا البحر الابيض المتوسط وغربا تونس والجزائر ، وجنوبا النيجر والتشاد والسودان ، ويبلغ عدد نفوسها نحو المليون ونصف المليون نسمة .

وتتكون من ثلاثة أقاليم ، وهي طرابلس وبرقة وفزان وأكبر مدنها النابضة بالحيوية الاجتماعية والاقتصادية طرابلس وبنغازي ومصراته وسبهه والبيضاء، وأهم مدنها الاثرية لبدة وشحات وصبراته وجرما .

وتكسو السهول الخصبة شمالا ، في الاراضي المتقاربة الى ساحل البحر ، وفي وادي الشاطىء والآجال بفزان وبهذه المناطق الزراعية ، تزدحم المدن والقرى ويزداد النشاط العمراني والتجاري .

وفي برقة مرتفع عظيم ، مغطى بالاشجار الطبيعية، يسمى الجبل الاخضر وفيه كثير من الينابيع الجارية بالماء العذب، اشهرها نبع درنة وعيون مارة وفي طرابلس مرتفع آخر يقال له الجبل الغربى ، ويمتاز عن الجبل الأخضر بكونه عامرا بالسكان والفلاحة الشتوية على الأمطار وبأشجار الزيتون وكروم العنب والتين ، ومن مدنه الشهيرة غريان ويفرن وجاد ونالوت .

وأهم ثروة زراعية لليبيا ، الزيتون والنخيل والحبوب الغذائية وأشجار الفواكه والخضروات والحلفاء والاغنام والابل والبقر والدواجن ، وأما الثروة الطبيعية فأهمها البترول والأسماك وملح الطعام والأملاح الكميائية (النطرون) وخامات الحديد والفوسفاط .

وقامت فيها أخيرا حركة كبيرة للتصنيع الآلي وافرة الانتاج ، لمعلبات الأسماك والفواكه والخضراوات والوقود (الكبريت) ، وأوعية الدقيق وتخريج الأواني المعدنية ونسيج الاقمشة على اختلاف أنواعها .

والزائر لليبيا الآن ، يجد فيها كل ما تراه العين في المغرب ، من مظاهر الحضارة الحديثة والقديمة ومن مظاهر التقاليد الاسلامية والافرنجية .

وتاريخ ليبيا مكتظ بالحوادث الجسام وبمعالم الفخر والمجد ، لذلك من العسير على بل ومن الظلم له ، ان آتيكم عنه بلمحات مشرقة في بضع دقائق ، اذ ليس لدينا جميعا فسحة من الوقت للاستماع الي في محاضرة خاصة أو محاضرتين ، ومما يخفف عنى هذا العبء الثقيل أننا جئنا لمعرض الكتاب بنماذج من مؤلفاته التي اشتملت عليه اجمالا وتفصيلا ، ومن هذه مثلا «تاريخ ليبيا العام » في جزئين كبيرين .

وغاية ما يمكنني ايجازه من لمحات هذا التاريخ ، أنه استنادا على الاكتشافات الأثرية التي وجدت عندنا بفزان وجبل العوينات ، وما عثرت عليه أخيرا سنة 1962 م. بعثة (فابريتوكوري) الحكومية ، وغير ذلك من النقوش الفرعونية وروايات أبي التاريخ (هيرودوت الاغريقي) ، نستطيع القول مما تقدمت الاشارة اليه ان الليبيين القدماء وجدوا بهذه الأرض منذ العصور

الحجرية ، وفي العصور التالية لها كانت لهم حضارة زاهرة ، ونابعة من صميم بيئتهم ، ومن مظاهرها انهم :

1 ـ بنوا المنازل وشيدوا القرى واشتغلوا بالزراعة.

2 ـ تعاطوا التجارة وصنعوا باتقان الاشياء الفخارية .

3 ـ استعمل أمراؤهم الأواني من الذهب والفضة.

4 ـ جعلوا للغتهم حروف كتابة وهي التي اشتهرت في التاريخ السحيق للشمال الافريقي باسم « الخط الليبي القديم » .

5 ـ كان لهم حكومات وملوك ومن هؤلاء «كابور» ومرماريو وششنق .

6 ـ كانت لهم فنون جميلة من رسومات الجبس والتصوير والنقش .

7 ـ كانت جيوشهم مجهزة بأنواع الأسلحة القديمة والعربات الحربية ، ولها مخيمات كبيرة وصغيرة من الجلد .

(2) ومنذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، كان لليبيين مع جيرانهم المصريين ، أقوى صلة اجتماعية وسياسية ، وهي اللمحة التاريخية عنهم ، الجديرة بأن نؤثرها بنصيب من الايضاح ، ففي ذلك الحين كانوا كلما تعرضت ليبيا لجفاف كبير ومجاعة ، تتجه قبائلهم شرقا الى وادي النيل المليء بالخيرات الزراعية ، وتنهب قراه المتطرفة نحو الصحراء بغزوات كاسحة متوالية .

ولما حاربهم ملوك الفراعنة بشدة ، وعجزوا عن كف غاراتهم ، أرادوا أن يجدوا لزعمائهم وبعض أفرادهم معيشة ثابتة ، فعينوا كثيرا من هؤلاء في الجيوش المصرية ، ضباطا وجنودا مرتزقة ، ورفعوا شجعانهم الى مراتب القادة والحكام ، وتزوج الملك «خوفو» باني الهرم الأكبر بأميرة ليبية .

(3) وعلى الرغم من هذه الصلات الاجتماعية والسياسية بين الطرفين فان الليبيين الآخرين وهم المقيمون بأرضهم ، لم يبطلوا غاراتهم الاولى بتاتا بل بمرور السنين زادوها عنفا وضراوة ، واغتنموا في بعضها اختلال الأمور بمصر لضعف ملوكها الفراعنة ، فجهزوا جيشا كبيرا ، من المشاة والفرسان والعربات الحربية ثم هجموا به سنة 945 قبل الميلاد ، على الجزء الشمالي من وادي النيل المعروف باسم « الدلتا » ، واستولوا عليه بعد معارك دموية مع أماليه .

ثم اسسوا في هذا الجزء دولة ليبية ، دامت مائتين وعشرين سنة وبنوا هنالك عاصمة جديدة وهي مدينة « بسطة » ، وكان من أشهر الملوك الليبيين بمصر ششنق الأول ، واتسعت فتوحاته شرقا الى فلسطين ، وجنوبا الى بلاد النوبة .

وبعد ششنق تنازع الملوك الليبيون بمصر على السلطة ، فكان كل واحد منهم يريدها لنفسه ، وصاروا لهذه الاسباب يقاتل بعضهم بعضا ، وساءت أحوال وادي النيل بعد ازدهاره أيام ششنق ، لعدم اهتمام أخلافه بمصالح الناس ، فكرههم المصريون وتحالفوا ضدهم مع جيرانهم (النوبيين) ثم حارب الطرفان الليبيين الى أن تغلبوا عليهم ، وأزالوا دولتهم من وادي النيل سنة 725 بعد الميلا .

(4) وعلى اثر انتهاء الليبيين من مصر ، تعرضت بلادهم لاحتلالات أجنبية كثيرة ، اذ استولى عليها نظير الشمال الافريقي ، كل من الاغريق والقرطاجنيين والرومان والبزنطيين .

وفي العهد الروماني بليبيا ، ظهر من بين أبنائها الأفذاذ ، شخصية ذائعة الصيت في التاريخ الروماني ، ألا وهو الامبراطور « سبتيموس سفاروس » ، ولد سنة 146م. بقرية مجاورة لمدينة لبدة ، وتوفي في احدى غزواته لانجلترا سنة 211 م. ويمكن ازائري مدينة طرابلس أن يشاهدوا نصبا لتمثاله أمام سوق المشير .

(5) وفي عهد الخلفاء الراشدين فتح ليبيا عمرو بن العاص سنة 23 هـ. 643 م. وبذلك كانت ليبيا أسبق البلدان المغربية اتباعا للاسلام وتحدثا بلغته، واعتبارا من قيام الدولة الأموية ، الى أواخر حكم بني حفص المنتسبين للموحدين ، فان تاريخ ليبيا غالبا ، متحد مع تاريخ الشمال الافريقي في جميع هذه المراحل ، بل وحتى في تعرضاته لغزوات الصليبيين .

(6) وفي سنة 1551م. انتزع ليبيا من الاسبان الأتراك العثمانيون ، وفي هذا العهد نشأت فيها ، سنة 1711 م. الأمارة الثرقرمانليه ، وكانت على نمط حكم البايات بتونس والدايات بالجزائر ، وامتد نفوذها ، أيام يوسف باشا القره مانللي الى « برنو » بافريقيا الغربية.

وكان لليبيا زمن القره مانليين أسطول عظيم ، فرض الاتاوة على جميع السفن الاجنبية المارة بالبحر الابيض المتوسط ، ومن حسنات هذه الامارة أنها جعلت اللغة العربية لسان البلاد الرسمي ، في جميع المعاملات الحكومية والدولية .

(7) وبقيت الامارة القره مانلية الى سنة 1835 م. ثم رجعت ليبيا بعدها للحكم العثماني مرة ثانية ، ثم انتهى هذا الحكم باحتلال ايطاليا لليبيا سنة 1911 م

ومنذ ما وطئت أقدامها ليبيا لم يفتر أبناؤها الاشاوس ، بقيادة عاهلهم الملك ادريس عن مناضلتها بالحروب الهوجاء ، والثورات المسلحة العنيفة الى قيام الحرب العالمية الثانية وانضمام ايطاليا فيها الى جانب المانيا ، ووجدوا في هذا الانضمام فرصة ثمينة لانقاذ وطنهم منها ، فتسارعوا من داخل ليبيا وخارجها الى مصر ، مكان هجرة قائدهم الأول وزعيمهم الأبي السيد محمد ادريس السنوسي ، فتحالفوا مع الانجليز ضد ايطاليا ، ثم كونوا جيشا فتيا تعداده خمسة عشر الفا . واشتركوا مع الانجليز بمحاربتها ، منذ سنة 1940 م. الى سنة 1943 م. وفي هذه السنة الأخيرة تم لهم تحرير التراب الليبي العزيز .

(8) وبعد ذلك حاولت الأهواء الاستعمارية، تقسيم ليبيا الى ثلاث جهات باعطاء فزان لفرنسا وطرابلس لايطاليا وبرقة للانجليز ، وقد عرفت هذه الفكرة بالمشروع الثنائي ، اذ أعده كل من وزيري خارجية بريطانيا وايطاليا المستر بيفن والسنيور سيفورزا ، ولما عارضه الوفد الليبي بهيئة الامم المتحدة معارضة شديدة صاخبة، وناصرته هنالك الوفود العربية كلها ، وقامت عليه في البلاد تظاهرات خطيرة ، كادت تنفجر الى مقاومات مسلحة اضطرت هيئة الامم الى الغاء المشروع الثنائي ، وأصدرت يوم 21 نوفمبر سنة 1949 م. قرارها التاريخي الهام ونصه (قيام دولة ليبية ذات سيادة ، في فترة لا تتجاوز أول يناير سنة 1952 م.) وفي يوم 24 ديسمبر سنة 1951 م. اعلنت ليبيا استقلالها الناجز ، بعد أن وضعت له الجمعية التأسيسية دستورا ، أقر نظام الحكم الملكي ، وعين الملك ادريس رئيسا للدولة ، وفي أول يناير سنة 1952 م. تسلمت الحكومة الليبية جميع المصالح الرسمية ، التي كانت تديرها حكومات الحلفاء العسكرية وفي 9 فبراير سنة 1952 م. أجريت في ليبيا أول انتخابات نيابية عامة ، تكون بها للبلاد برلمان باسم مجلس الامة الليبية من فرعين هما النواب والشيوخ .

نهضة الكتاب الليبي

وبعد هذه اللمحات المجملة ، لتاريخ ليبيا قديما وحديثا ، أتحول عنها الى النبذة الاخرى وهي الخاصة بالكتاب الليبي .

(1) ـ فالكتاب بمعناه المطلق ، هو المرآة الصافية، لحضارات الأمم الغابرة والحاضرة ، والمترجم عن امجادها ومفاخرها ، والمعرف بعلومها وآدابها .

والكتاب الليبي ، ونعنى به غير المضمون بين دفتين ، وجد منذ ألفي سنة قبل الميلاد ، اذ كان للغته وقتئذ حروف كتابية سجل بها أجدادنا الأولون أفكارهم، نقشا على الحجارة بمثابة الكتاب المتعارف بيننا الآن ، وما برحت قبائل الطوارق ، بأراضي غات جنوبي فزان تستعمل خط حروفه فيما بينها .

وفي عهدي الاغريق والرومان بليبيا ، افتتح كثير من المدارس بمدن شحات ولبدة وصبراته وغيرها ، وقد عظم فيها شأن الكتاب وتنئذ ، لما كان يتضمنه من العلوم والآداب المختلفة ، باللغتين الاغريقية واللاتينية ، ومن مدرسة لبدة وعلى كتبها تخرج الامبراطور سفاروس ، وأتم تحصيله العالي بروما ، حاصلا على شهادة الحقوق

(2) ـ ومن أيام العباسيين الى أواخر بني حفص، نجد أن الكتاب الليبي العربي كان تصنيفه في مختلف العلوم الاسلامية ، ومن لغة ونحو وحديث وتفسير وتوحيد وفقه وتاريخ وأدب وشعر ، وكان أسلوبه الانشائي نظير أمثاله من المؤلفات الأخرى السائرة في تلك العهود ، فهو ايجاز لكلام المتون وتوضيحها بالحواشي والتعقيب واما اسهاب العمل أو تقصير المخل .

ولكن الكتاب الليبي في وقتنا الحاضر ، وكما سترون بالمعرض من نماذجه قد تنحى تماما في تاليفه عن طريقة المتون والهوامش وتأثر أصحابه بأساليب التعمير الفني الحديث ، فالتزموا فيه المأخذ القريب والمعنى الجلي ، هذا ولا تفوتنا الاشارة الى أن كتابنا المدرسي كذلك نعتبره من أمثل أنواعه المنهجية ، أسلوبا وافادة وتركيزا للمعلومات المقررة وأسئلة موجهة وخرائط وصورا .

نهضة ليبيا الثقافية

أ ـ الثقافة التربوية

وبفضل توجيهات عاهل ليبيا العظيم ، سارت حكومتنا خطوات واسعة المدى في جميع الميادين الثقافية المتنوعة ، ولو شئنا هاهنا أن نوفي الكلام حقه عن جميع ما يندرج ، تحت كلمة نهضة ليبيا الثقافية ، أحوجنا الأمر الى كتاب خاص بها ، لا الى صفحات قليلة موجزة .

(1) ـ فحين خرج الاستعمار من ليبيا ، لم يترك فيها غير (150) مدرسة ابتدائية اسما وأولية حقيقة يتردد عليها نحو (3500) تلميذ ، ويقوم بالتدريس لهم من الليبيين نحو (300) معلم ، ولم يكن من بينها في ذلك الحين ولو مدرسة واحدة اعدادية .

(2) ـ أما في هذه السنة المدرسية (64ـ65) ، (وأرجو الا تنسوا تعداد ليبيا الضئيل بالنفوس) فقد ارتفعت أعمال الحياة الثقافية في قطاعات التربية والتعليم الى :

أ ـ (732) مدرسة ابتدائية للذكور والاناث ، عدد تلاميذها وتلميذاتها (552 168) .

ب ـ 103 مدارس اعدادية فيها (927 17) طالبا وطالبة .

ج ـ (18) مدرسة ثانوية تضم بين جدرانها (279 4) طالبا وطالبة .

د ـ ثم (7) معاهد للمعلمين والمعلمات ، تشتمل على (224 1) طالبا وطالبة .

هـ ـ ومن غير ما تقدم ذكره ، ففي ليبيا أيضا طائفة من المدارس الفنية والمهنية ، وهي : (5) للتجارة والهندسة و (3) صناعية و (3) زراعية .

(3) ـ وتوجت رؤوسها كلها بالجامعة الليبية ، التي تضم (5) كليات للحقوق والتجارة والآداب والعلوم والهندسة .

(4) ـ ثم جامعة السيد محمد بن على السنوسي ، التي أمر بتأسيسها السيد ادريس ، ملك ليبيا ، احياء وتخليدا لذكرى جده العظيم التي تحمل اسمه ، وهي تشمل عددا من الكليات في الشريعة واللغة وأصول الدين، ولها في أنحاء ليبيا معاهد ابتدائية وثانوية ، ومناهجها قائمة على رسالة الجامعة الدينية .

كما أن هذه الجامعة ينتسب اليها ، الكثير من طلاب الشعوب الاسلامية ، ومن هؤلاء مثلا طلاب من عمان والجنوب العربي ، وغرب افريقيا ، ويدرسون ويطعمون بالمجان .

(5) ـ وقامت ليبيا بأعمال باهرة لصيانة آثارها الخالدة ، والكشف عن الذي لا يزال منها تحت الثرى قاصدة بذلك أن تفتح مجالات ثقافية أخرى لتعريف جيلها الحاضر والمستقبل ، بتراثه الحضاري المجيد ومفاخر أجداده وآبائه ، كما يوجد في البلاد طائفة من المتاحف الاثرية ، أهمها متحف القلعة بطرابلس ومتحف صبرانة ومتحف شحات ومتحف جرما .

ب ـ الثقافة الادبية

(1) وقد انتج الكتاب والادباء الليبيون ، عشرات من المؤلفات القيمة ، في التاريخ والجغرافية والقصص والتمثيل المسرحي والقانون والموسيقى واللغة والشعر والعلوم الاجتماعية والزراعة وفي كتب التربية المدرسية ، وبعض هذه المؤلفات باللغة الانجليزية والايطالية .

(2) ـ وبلا مبالغة نستطيع القول أن هذا الانتاج الفكري في جملته ، بلغ من الاجادة في التعبير وسلامة الذوق وافادة البحث والاخراج الفني ، ما يجعله يرتقي الى مصاف أنواعه في البلدان العربية .

غير أنه لحداثة كثير من هؤلاء الادباء في الحياة العلمية الجديدة ، فان قيمة انتاجهم الفكري ، لم تصل بعد الى المستوى العلمي الخصب الذي عهدناه في كتب عباس محمود العقاد وعلال الفاسي مثلا .

(3) ـ ومما ينبغي أن نشير اليه بهذه المناسبة ، أن الحكومة الليبية قد اتجهت الى باكورة هذه النهضة الادبية بالتشجيع الكبير ، فجعلت لها جوائز مالية مغرية ، تمنحها بوساطة لجان رسمية خاصة بها ، لنبغاء الفكر الليبيين ، الذين ينتجون أي مؤلف ممتاز بأبحاثه الثقافية ، أو يترجمونه عن اللغات الاجنبية شريطة أن يكون ذا طابع شخصي لصاحبه ، وله صلة وثيقة بمعالم الحياة الليبية .

(4) ـ ومن العوامل الاخرى للنهضة الثقافية ، أنه يوجد في البلاد عدة دور للكتب ، على اختلاف أحجامها وموضوعاتها وحداثتها وقدمها . وتشتمل هذه الدور على

نفس المؤلفات والمخطوطات والوثائق والمستندات الهامة . ومن اكبرها مكتبة الاوقاف ومكتبة الحكومة ودار المحفوظات بمدينة طرابلس ، ثم مكتبات بنغازي والبيضاء وسبها ، والمكتبات الفرعية بمراكز المحافظات الليبية .

جـ ـ ثقافة الاعلام والفنون

(1) ـ وتعتبر وسائل الاعلام أيضا ، وهي الصحافة والاذاعة والفنون الشعبية ، من أبرز المظاهر الثقافية في ليبيا ، ففيها الآن ثلاث جرائد يومية وعشرة أسبوعية وطائفة من المجلات الراقية بأبحاثها وصورها الملونة ، وزيادة على هذا فان وزارة الانباء والارشاد الليبية أوجدت منذ السنة الماضية لجنة عليا لرعاية الفنون والآداب ، وشرعب هذه اللجنة تعمل بنشاط ، لاثارة النبوغ الكامن باذهان الشباب الموهوب المثقف ، في نواحي الرسم والتصوير والتمثيل المسرحي وغير ذلك .

(2) ـ ولليبيا الآن فرقة فنية استعراضية للرقص الشعبي المعروف باسم « فولكلور » تشرف عليها وزارة الانباء والارشاد وهي على نمط أمثالها من فرق المغرب وتونس ومصر ، وقد أحرزت استعراضاتها الرائعة اعجاب كل من شاهدها من الاجانب .

(2) ـ ومن المشروعات الهامة في هذه المجالات الفنية أن الحكومة وافقت أخيرا على انشاء معهد للموسيقى ، ليعزز قيام هذه الفرقة ، وينمي في المجتمع الشعبي الاذواق والاحاسيس الوجدانية .